



المحاضرة الثالثة

- دولة الغساسنة:

التسمية والموقع:

كانت القبائل الأزدية اليمنية قد هاجرت إلى بلاد الشام على أثر انهيار سد مأرب وتدحر نظم الزراعة واعمال الري في جنوب الجزيرة العربية ، وقد نزل الأزد في البلقاء واستقروا حول نبع الماء يعرف باسم(غسان)) فعرفوا بالغساسنة .

وعرف الغساسنة أيضاً بـ(آل جفنة) وبـ(أولاد جفنة) نسبة إلى أول ملوكهم جفنة بن عمرو مزيقياء، وكذلك يسمون بـ(آل ثعلبة) نسبة إلى جد لهذه الأسرة يعرف باسم (ثعلبة بن مازن)، وعاصمتهم الدينية كانت (بصرى)، أما عاصمتهم السياسية فكانت مخيمًا متنقلًا، ثم أصبحت (الجابية) في الجولان، وقبل أن يستقروا في بلاد الشام، أقاموا حيناً من الزمن في البلقاء من أرض تهامة على نبع ماء يقال له (غسان) فنسبوا إليه، وكان يسكن مشارف الشام قبل نزوح الأزد الغساسنة قوم يعرفون بالضجاعمة وهم من قبائل بني سليح من قضاة، الذين فرضاوا على الغساسنة إتاوة يدفعونها لهم إلى أن تغلب الغساسنة عليهم وحلوا محلهم، إلا أن تغلب الغساسنة على بني سليح الضجاعمة لم يقض عليهم نهائياً، بل ظلوا مقيمين في موضع آخر من الشام إلى زمن متأخر، وديار الغساسنة تمتد ما بين الجولان واليرموك، وكانتوا يقيمون بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى يعرف (جلق).

استطاع الغساسنة أن يتمددوا بنفوذهم إلى أن استطاعوا أن يبسطوا سيطرتهم على القبائل العربية في كلّ من فلسطين، والأردن، وقد كان حُكم ملوكهم في البلقاء، وحوران، والغوطة، وكانت قاعدة سلطتهم هي منطقة الجابية في الجولان، أما جلق فقد كانت مركزاً لهم لفترة وجيزة من الزمن، إلا أنّهم لم يستطيعوا أن يصلوا بنفوذهم إلى المدن المُحصّنة، كبصرى، ودمشق، وقد اعتبر الغساسنة أنفسهم ملوك الbadia في الشام، وليس ملوك الحاضر فيها؛ حيث كانوا يجوبون الbadia من أقصى شمالها حتى جنوبها، وكانت لهم علاقات وثيقة بتدمر، وحوران، وكان

الغساسنة ذوي طابع بدويٌ في مختلف جوانب حياتهم، ويبدو ذلك واضحاً حتى في جيشهم الذي لم تكن لديه حصونٌ، أو كتابٌ، أو حتى مراكز خاصة به.

أشهر ملوك الغساسنة:

لم يظهر عددٌ واضحٌ لمملوك الغساسنة، فقد كان هناك خلاف واضح بين المؤرخين في عددهم، فمنهم من ذكر أنَّ عدد ملوك الغساسنة عشرة عشرة ملوك فقط، ومنهم من ذكر أنَّ عددهم يقارب 32 ملكاً حكموا مدةً تصل إلى ستمائة سنة، وكما أنَّ هناك خلافاً في عدد ملوك الغساسنة، فقد كان هناك اتفاق على أنَّ أول هؤلاء الملوك هو جفنة بن عمرو بن ثعلبة، الذي أخضع قضاة، وفي ما يأتي ذكر لأشهر ملوك الغساسنة الذين جاؤوا بعد جفنة بن عمرو:

١. عمرو بن جفنة: هو ابن جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وينسب إليه بناء دير أيوب، ودير حالي.

٢. ثعلبة بن عمرو: ينسب إليه بناء صرح الغدير القائم على أطراف حوران.

٣. الحارث بن جبلة: توالي حُكم الغساسنة في مدة حكم الإمبراطور الروماني جستنيان ($527 - 565$ م)، وهو الذي منحه لقب ((ملك)) أو الطريق وبسط نفوذه على كثير من قبائل عرب الشام، وكان الإمبراطور الروماني جستنيان يقصد بذلك أن يجعل الحارث خصماً قوياً في وجه المنذر بن النعمان المعروف بابن ماء السماء ملك الحيرة، وكذلك عاصر كسرى أنو شروان ($531 - 579$ م) ملك الفرس وقد استطاع السيطرة على عرب الشام جميعهم. ويعد أعظم ملوك غسان وأشهرهم.

٤. المُنذر بن الحارث: هو ابن الحارث بن جبلة، وقد كانت علاقته بالبيزنطيين مُتوترة؛ وذلك لأنَّه اعتقد مذهب الطبيعة الواحدة (المذهب المونوفيزي).

٥. جبلة بن الأبيهم: بعد أن تلاشت دولة الغساسنة، اختارت كل قبيلة من الغساسنة أميراً لها، وكان جبلة آخر أمراء الغساسنة، وقد أسلم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، إلا أنَّه عاد سريعاً إلى النصرانية، واستقرَ في بلاد البيزنطيين.

أما عن أهم الأحداث التاريخية التي شهدتها دولة الغساسنة فكانت على النحو الآتي:

امتدَّت دولة الغساسنة وازدهرت في عهد الملك الحارث بن جبلة؛ حيث حارب الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء، واستطاع الانتصار عليه في عام 528 م، كما قام في عام 529 م بإعانة البيزنطيين ضدَّ السامريين؛ وهذا ما جعل جستنيان الإمبراطور البيزنطي يمنحه لقب الطريق، ولقب فيلارك، وهي ألقاب بيزنطية رفيعة، وفي عام 554 م، حدثت معركة بين

الغساسنة بقيادة الحارث الغساني، وملك الحيرة المُنْذَر الثالث؛ والتي كان سببها ادعاء كلّ منها السيطرة على القبائل العربية التي تقيم في إقليم السراط (منطقة في جنوب تدمر)، وفي هذه المعركة المُسَمَّاة معركة حليمة، انتصر الغساسنة، وقتل المُنْذَر الثالث سنة ٤٥٤ مـ. وخسر الحارث أحد ابنائه ويدعى جبلة فدفنه أبوه في قلعة عين عوداجه بالقرب من قنسرين. وبعد موت الحارث خلفه في الحكم المُنْذَر بن الحارث الذي لقب بالمنذر الأكبر تمييزاً عن أخيه المنذر الأصغر. وقد استهل عهده بمحاربة المناذرة وتحقيق الانتصار على ملكهم قابوس بن المنذر في موقعة (عين أباغ) التي حدثت في سنة ٤٥٧ مـ بالقرب من الحيرة.

إنَّ عصر قوَّة وازدهار الغساسنة قد اندثرَ بعد انتهاء عهد النعمان؛ إذ إنَّ قيام كسرى أبُرويْز الساساني بالهجوم على بلاد الشام في عام ٦١٣ مـ، واحتلال القدس، ودمشق، قد أنهى نفوذ الغساسنة بشكلٍ نهائيّ، وعند قدوم الإسلام وانتشاره عبر الفتوحات الإسلامية، وقفَ الغساسنة الباقيون إلى جانب البيزنطيين؛ لمحاربة المسلمين، ففي معركة مَرْج الصفر عام ٦٢٤ مـ، والتي شارك فيها الغساسنة إلى جانب البيزنطيين، استطاع خالد بن الوليد الانتصار عليهم، وفي معركة اليرموك عام ٦٣٦ مـ، اشتباكَ خالد بن الوليد مع جبلة بن الأبيهم الذي كان يشارك إلى جانب البيزنطيين فيها. لكنَّ مالبثت أن ساءت العلاقات بين الغساسنة والروم قد أخذت تسوء بسبب موقف المُنْذَر المؤيد للمذهب اليعقوبي، فأوزع الإمبراطور جستين الثاني إلى البابادية وشقوا عصا الطاعة على الرومان مدة ثلاثة سنوات فاغتنم هرب إلى البابادية وهاجموا بلاد الشام فاضطروا إلى مفاوضة المُنْذَر وعقد الصلح، إلا أنَّ هذه العلاقة لم تستمر طويلاً. وذلك بمشاركة المُنْذَر بالحملة مع الروم ضد الفرس وفشل الرومان في هذه الحملة واتهم المُنْذَر بالتواطؤ مع الفرس مما أدى أن دبروا له الرومان مكيدة عن طريق ماجنوس حاكم سوريا صديق المُنْذَر الذي دعا له لحضور حفل افتتاح كنيسة قد أقامها ماجنوس حيث قام بالقبض عليه بأوامر من الإمبراطور البيزنطي وتم إرساله إلى القسطنطينية مع ابنين له ، ولم يلبث طيباريوس أن توفي وخلفه موريق عدو المُنْذَر اللدود ، فأمر بنفي المُنْذَر إلى جزيرة صقلية ، كما أمر بقطع المعونة السنوية التي كانت تقدمها الدولة البيزنطية لأسرة الغساسنة. مما أدى إلى تصدع دولَة الغساسنة وتفككت وحدتها وانقسموا إلى (١٥) فرقة لكل منها أمير ، وبدأ الاقتتال بين القبائل العربية والمحروbs مما جعل الرومان يعيّنوا لهم أميراً جديداً من آل جفنة لما يتمتع به هولاء من مكانة وهيبة بين العرب في بلاد الشام. وكان منهم جبلة بن الأبيهم ، الذي اشترك مع الروم في قتال المسلمين بقيادة خالد بن الوليد في دومة الجندل سنة ٦٣٤ مـ ، فضلاً عن معركة اليرموك التي أسلم بعدها ، غير أنه ما لبث أن ارتد عن الإسلام وهرب القسطنطينية.

ومن الأحداث المُهمَّة التي لا بدَّ من ذكرها، علاقة الغساسنة مع بني تغلب بِحُكْمِ جوارهم؛ حيث لجأ بني تغلب إلى الغساسنة أثناء مطاردة ملوك الحيرة لهم، إلا أنَّ

علاقة الغساسنة ببني تغلب أصبحت سيئة في عهد الملك الحارث بن أبي شمر؛ إذ نشأ قتال بينهم أدى إلى هزيمة الحارث بن أبي شمر، وبشكل عام فإنّ بني تغلب لم يكونوا خاضعين تماماً للغساسنة، أو حتى للمناذرة الذين كانوا يلاحقونهم.

ولما كان البيزنطيون والفرس أعداء لا تهدا بينهم الحروب، فقد وافق مصلحة كل من الدولتين أن تقيم على حدودها دويلة صغيرة تتلقى أول الصدمة كلما انقض جانب على جانب في هجوم. وانتقل العداء بين البيزنطيين والفرس، بالعدوى، فأصبح عداءً بين الغساسنة والمناذرة. ودخلوا في حروب طاحنة، إرضاء لحلفائهم، من الروم والفرس، وكان كل خلاف أو صراع بين الدولتين الكبيرتين، يعكس أثره السيئ على العلاقات بينهما، وطيلة هذه المدة الزمنية لم يفك أي من الإمارتين، في كيفية بناء قوة ذاتية تجمعهما وتحميهما معًا من الخطر الخارجي، الذي كان يتهددهما آنذاك، ونتيجة للصراع المستمر تلاشت الإمارتان وبقيت إمبراطوري الفرس والروم.

حضارة الغساسنة:

أما حضارتهم فقد كانت متأثرة بالحضارتين الساسانية والبيزنطية، فاقاموا الكثير من القصور والقاطر والأبراج وغيرها، فعمرت المدن بهذه الأبنية، واشتغل الغساسنة بالزراعة، فاستغلوا مياه حوران التي تتدفق من أعلى الجبال في الزراعة، فعمرت القرى، ويرجح أن يكون الغساسنة قد استفادوا من موقعهم في عملية نقل التجارة، سواءً أكانت محلية مما اشتهرت سورياً بانتاجه لاسيما الأقمشة والحبوب، أو مما يأتيها من خارج البلاد لاسيما التجارة الواردة من الهند والصين عبر الخليج العربي، وكانت لغتهم هي اللغة العربية إلى جانب اللغة الآرامية التي تأتي في الدرجة الثانية.

واهتموا ببناء القصور، كقصر المشتى، وقلعة القسطل، وقد ورد ذكر قصور الغساسنة في الشعر الجاهلي، وكذلك عند الشعراء المخضرمين الذين عاشوا العصرین معاً (الجاهليّة والإسلام)، كالتابعة الديباني، وحسان بن ثابت، الذي كان يعيش عند آخر ملوك الغساسنة قبل إسلامه، أما بالنسبة للمجال التجاري عند الغساسنة، فمن المرجح أنّ الغساسنة استطاعوا الاستفادة أيضاً من موقعهم في مجال التجارة، سواءً أكانت تجارة محلية، كتجارة الحبوب والأقمشة، أم تجارة خارجية مع الدول الأخرى، كالهند والصين، وقد قام الغساسنة باستخراج حروف اللغة العربية من الحروف النبطية، ونقلوا الحضارة البيزنطية بشكلها المادي إلى العالم العربي.

الديانة :

وقد اعتنق الغساسنة النصرانية مُتّبعين المذهب اليعقوبي، نسبة إلى يعقوب البرادعي الرهوي. وذلك بحكم ولائهم للروم، ومع دخول الغساسنة بلاد الشام استطاعوا أن يحلوا محل قضاة؛ حيث اعترف البيزنطيون بسيادتهم، وأعطوهم القاباً رفيعة، وكان للغساسنة دوراً مهمّاً في حرب الروم مع الساسانيين؛ إذ كانوا دولة حاجزة بين الساسانيين وبلاد الشام.